النظام الاقطاعي

الذي ورثه الملك إيخ ـ ان ـ آتون

الملك إيخ ـ إن ـ آتون ، أو كما يسميه كثير من كتّاب التاريخ المصري القديم ، اخناتون على سبيل التخفيف هو ابن الملك امنحتب الثالث من زوجته «تي» التي اختارها الملك من طبقة الشعب المصري لا الاسيوي ، كما زعم بعض المؤرخين ، فهي كريمة الابوين المصريين بويا وتويا .

وأهم دافع حفزني للبحث في هذا الموضوع هو دراسة نظام الحكم في عصر هذا الملك وسابقيه من ملوك عصر التوحيد الثالث (الدولة الحديثة) وبيان مبلغ سلطة هؤلاء الملوك : أكانت استبدادية مطلقة حقا كما يقول المؤرخون أمثال بريستد وماير وبونكر ومورتيه وبتري وسائر الباحثين ، أم أن الرأي بعكس ذلك كما انتهت اليه بحوثي وعلى ما سأعرضه الآن

كان نظام الحكم في مصر القديمة يتوقف على مقدار ما تتصف به سلطة الملك من القوة والضعف . واذا عرفنا أن الحكومة والملك شيء واحد ، وأن الحكومة قديما كانت تتمثل في شخص واحد هو الملك وتتجمع في شخصه مختلف السلطات ، أدركنا ان الحكومات كانت تتغير حسب سلطة الملك قوة وضعفا فتصبح مطلقة أو مقيدة بقوة أخرى ـ وهذه الظاهرة لم تقتصر على عصور الفراعنة المصريين ، بل نجد ما يشابهها في فرنسا في زمن الملك لويس الرابع عشر حينما ابتدع نظرية « الحكومة أنا وأنا الحكومة » .

والرأي السائد حتى الآن بين العلماء والباحثين أن سلطة الملوك في الفترة بين احمس الاول وايخ ـ ان ـ آتون كانت استبدادية مطلقة وان نفوذ الامراء زال تماما تبعا لانصرافهم في خدمة الملك كديرين لمقاطعاتهم .

ولكن عند التعمق في دراسة هذا العصر وبحثه بحثا التماس الدقق ان هناك مشكلة دقيقة تواجه المؤرخ . وهي هل كانت سلطة الملك ايخ ـ ان ـ آتون ومن سبقه من ملوك عصر التوحيد الثالث استبدادية مطلقة ، أم كانت سلطتهم يضعفها وجود نظام اقطاعي خاص ؟

وبعبارة أخرى هل كان الملك ايخ ـ ان ـ آتون ومن سبقه من ملوك عصر الـ

الثالث منذ أيام تحتمس الثالث في قوتهم وسلطانهم كما يظهرهم التاريخ هم الواضعون لأساس النظام الاقطاعي الذي ظهر جليًّا في عهد الملوك الذين تولوا الحكم بعد تحتمس الثالث بحيث انه عند ما تولى ايخ ـ ان ـ آتون الملك ورث النظام الاقطاعي الخاص الذي كان على أيام سابقيه، والذي قيّد من سلطتهم، خلافاً لما كان معروفاً عنهم من قبل ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، فنجد انه يمكننا القول ان الملوك المصريين القدماء لم تبلغ سلطتهم من القوة مثل ما بلغت في عهد الملك احمس الأول ومن تلاه من الملوك حتى عهد تحتمس الثالث (لأنهم أصحاب الفضل في تخليص مصر من أيدي الغزاة فأمكنهم أن يركزوا في أيديهم كل السلطات المختلفة في مقر عاصمتهم طيبة) ولكن من سوء الحظ كان الملك أحمس ومن خلفه من الملوك على عرش مصر يمنح الآلهة المتعددة في مختلف الأقاليم (أمثال آمون في طيبة ورع في عين شمس وبتاح في منف وهكذا) أراضٍ بجعل ملكيتها باسم الآلهة المختلفة ويلحق بها امتيازات كان الملوك يعتبرونها في بادىء الأمر اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما نالوه من نصر في حروبهم أو بعثاتهم .

وهنا نرى شيئين خطيرين . أولاً : ان الملوك وهبوا أراضٍ واسعة للآلهة في مختلف الأقاليم . ثانياً : ان الملوك أعفوا هذه الأراضي من الضرائب بل وأضافوا اليها امتيازات أخرى .

* * *

وقد زادت هذه الأراضي زيادة غير منتظرة ولم يصبح منحها اعترافاً بالجميل للآلهة، بل أصبح دليلاً على الضعف والتردد وانعكست الآية في عهد الملوك اللاحقين لمصر تحتمس الثالث ، فلم يعد الكهنة خاضعين لسلطان الملك كما كانوا في أول الأمر بل شعروا بنفوذهم وسلطانهم الذي أخذ في الازدياد في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الملوك يضعف وينقاص .

فما بوادر هذا الضعف من جانب الملوك وما هي مظاهر هذا الجاه وتلك السطوة من جانب رجال الدين ؟ (أولاً) : لم تصبح ادارة المعابد بعد خاضعة لادارة الحكومة المركزية كما كانت من قبل، بل استقلت عنها تماماً . وبالتالي أصبح موظفو هذه المعابد ومديروها من الموظفين الدينيين تحت إمرة رئيس الكهنة في كل معبد .

وكانت ادارة هذه المعابد وأملاكها تتناول كثيراً من النواحي الزراعية والصناعية والفنية والاقتصادية والعلمية .

فمن الناحية الزراعية كان عدد كبير من العمال يعمل في زراعة الأرض والري والحصاد وتربية الماشية وشق الترع وغرس الحقول والحدائق بالفاكهة والأعناب .

ومن الناحية الصناعية كان عدد كبير يعمل في مستخرجات الماشية ومستخرجات الكروم وغيرها مثل عمال النسيج وعمال التبيذ .

ومن الناحية الفنية كان عدد كبير يعمل في بناء المعابد وملحقاتها وهندستها وفي النقش والنحت والرسم .

ومن الناحية العلمية ، كان عدد كبير أيضاً يعمل في علوم الدين وعلوم الفلك وفي الطب وشئون الكتابة والقضاء والهندسة والكيمياء والرياضيات .

أضف إلى ذلك ان جمهوراً عظيماً لا يستهان بعدده من الرجال، كان يعمل في كل معبد من هذه المعابد وملحقاتها في أعمال تتصل بالحجارة والحلاقة ومنهم الطواني وصانع النعال والصائغ وحارق البخور وغالي الزيت وحامل المياه ومقدم القرابين .

يضاف إلى هؤلاء أيضاً أنواع من الخدم كالحارس والبواب .

أما فيما يختص بمدينة الأموات التابعة لكل رئيس كهنة فادارتها معروف أمرها للجميع.

ولم يكتف رجال الدين برعاية شؤون الدين وإدارة معابدهم بل كانت لهم في كثير من الأحيان صلات وثيقة بكثير من الأعمال الحكومية أو بعض المهام الملكية ، فكثيراً ما كانوا يندبون لادارتها أو للاشراف عليها ولعلّ من أهم الأمثلة التي تؤيد ذلك ما يلاحظ على ألقاب الكاهن الأكبر « حابوسنب »

بل وأكثر من ذلك أصبح منصب رئيس الكهنة وراثيًّا، فكان الخلف يعقب السلف دون أن يقوم نزاع أو خلاف كالذي كان يقوم عادةً بالنسبة لتوارث الملك في ذلك الحين .

وأظهر مثل لدينا على هذا كبير كهنة منف الذي مثّل سلالته على احدى الجدران في أربعة صفوف في كل صف منها خمسة عشر كاهناً من أفراد أسرته ، وظلوا جميعاً متربعين في منصب الرياسة الدينية في منف مايقرب من ألف وثلاثمائة عام تقريباً . وهناك قطعة أثرية أخرى يحتفظ كربنهاجن تمثل توارث كهنة عين شمس على هذا النسق .

أما كهنة آمون فقد نشر عنهم «لافيفر» الكثير كما هو معروف للجميع زد إلى ذلك أن سلطة الرئيس الديني لا تنتهي بوفاة الملك المعاصر له بل تستمر ولا تعتبر منتهية إلاّ بوفاة هذا الرئيس . وربما ازدادت قوة بعد وفاة الملك اللاحق، وربما يصيبهم من امتيازات جديدة وهدايا جديدة بصرف النظر عما وهبه لهم أسلافه . فيكدسون بذلك الاحجار الثمينة والذهب وتتكاثر الأراضي والمواشي ويزداد عدد اتباع كل معبد.

ولم يكتف الرؤساء الدينيون بكل ما نالوه من هذه الامتيازات بل أطلقوا على أنفسهم لقب أمير « حاتي عا » فتشبهوا بحكام الاقاليم في ألقابهم وفي نعوتهم .

(ثانياً) بيّنا أن طبقات الكهنة أصبحت مستقلة عن السلطة المركزية. ولهذا الاستقلال مظاهر متعددة فمن الناحية السياسية تدرّج الأمر برؤساء المعابد إلى أن أصبحوا في وقت واحد يجمعون بين منصبي « الرئيس الديني لجميع معابد القطر في مصر العليا والسفلى » ومنصب « الوزير » وهو رئيس الدولة بعد الملك مباشرة أي أنه قد تطور نفوذ رجال الدين بالتدريج حتى أمكنهم الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية أو الجمع بين السياسة والدين .

ويحدّثنا التاريخ أن « بتاح مس » كبير كهنة بتاح بمنف في عصر الملك أمنحتب الثالث جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة بتاح بمنف ، كما أن « حابوسنب » كبير كهنة آمون في عصر الملكة « حاتشبسوت » قد جمع أيضاً بين الوزارة ورئاسة كهنة آمون بطيبه .

فأصبح رؤساء المعابد بذلك يشتركون اشتراكاً فعليّاً في حكم البلاد مع الملك .

ومن الناحية الادارية كان يقوم بادارة هذه المعابد وأملاكها من ضياع ومصالح وغيرها، رجال دينيون يخضعون مباشرةً للرئيس الديني الأعلى لمعبد لا للسلطة المركزية . وكان اختصاص هذا الرئيس يتسع ويضيق تبعاً لمقدار انتشار عبادة الاله القائم بعبادته وخدمته.

ومن الناحية الاقتصادية كانت معابدهم وما تملك من أرض وحيوان معفاة هي وباقي الموارد من الضرائب عموماً ، كما أن ميزانية هذه المعابد كانت منفصلة عن الميزانية العامة للدولة انفصالاً تامّاً، فكان لهذه المعابد بيوت للذهب وبيوت للفضة خاصة، ومخازن غلال خاصة ومراكب خاصة لجلب الدخل والخيرات من البلاد التابعة لهذه المعابد، غير بيوت الذهب والفضة ومخازن ومراكب الحكومة .

ومن الناحية الاجتماعية ، دلتنا النقوش على أن رؤساء المعابد كان لهم المقام الأول والاعتبار الأعظم . كما أن المعابد كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة معاهد ثقافية تشبه دور العلم أو الجامعات في وقتنا هذا، وكان الرؤساء الدينيون يعتبرون كعمداء لهذه المعابد .

ومن الناحية القضائية كانت تمثل رجال الدين في مختلف المحاكم .

أما وقد رأينا الآن ما انتهى اليه أمر هؤلاء الرؤساء الدينيين، الذين يحق لنا أن نسميهم الكهنة الأمراء، من سلطان مطلق في ادارة معابدهم وعلى الشؤون المتعلقة بالمالية والقضاء ، نخرج بنتيجة واحدة وهي أن نفوذ هؤلاء الكهنة الامراء طغى على نفوذ الملك وتضاءلت هيبة الملك بجوار هيبتهم — حقّ لنا أن نسمي هذه المعابد بدويلات داخل الدولة المصرية ، وان نسمي هؤلاء الرؤساء الدينيين « الكهنة الامراء » .

وكان طبيعيّاً ، وقد شبهنا هذه المعابد بدويلات ، ان يكون لكل منها بوليس خاص لمراقبة جميع الأعمال والحفاظ على الأمن .

وكذلك كان طبيعيًا ان يكون لكل منها جيش خاص يذود عنها ويدفع عنها اعتداءات المغيرين ، فكان وجود هذه الجيوش مما يقوي من هيبة الرؤساء الدينيين ويضعف من هيبة الملك .

زد إلى ذلك ان رؤساء المعابد كانوا هم رؤساء الجيوش ، في حين ان القاعدة ان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش .

أصبح الكاهن الأعلى لكل معبد ، أو رئيس كل دويلة ، يزاحم الملك سلطته وسلطانه على البلاد .

فليس غريباً بعد كل ما رأيناه من مختلف المظاهر لازدياد سلطة الكهنة الامراء ، أن تحس بانكماش سلطان الملك وتضاؤل سلطته في هذه النواحي المتعددة التي سبق أن تكلمنا عليها

وأخيراً يجب ان نطرح السؤال الآتي : ما هي اركان النظام الاقطاعي وأهم خواصه وما مدى توافقها وانطباقها مع ما انتهى اليه حال الأمة والدولة المصرية وكهنتها عند ما ورث الملك ايخ — ان — آتون عرش مصر ؟

إن خواص النظام الاقطاعي وأركانه تنحصر في أربعة أمور رئيسية : (اولاً) الامارة — وقد رأينا ان الرئيس الديني انتهى الأمر به إلى لقب أمير (ثانياً) التوارث — وقد أصبح منصب الرئيس الديني وراثيًا يتوارثه أولاده ثم أحفاده دون نزاع أو خلاف .

(ثالثاً) التعدد — وقد كان عدد هذه المعابد وممتلكاتها يتزايد للاله الواحد في جهات مختلفة فلما جاء ايخ — أن — آتون وجد عددها منتشراً في أجزاء مختلفة من أقاليم القطر المصري .

(رابعاً) الانفصال عن السلطة المركزية — وقد بيّنا سابقاً أن هذه المعابد كانت منفصلة عن السلطة المركزية من جميع نواحي النشاط السياسي والاداري والمالي والقضائي والحربي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي .

من هذه الخواص مجتمعة ومما رأيناه من انطباقها وتوافقها على ما كانت عليه الأمة المصرية ، وما وصلت اليه حال الكهنة حتى عهد الملك ايخ — أن — آتون يمكننا القول أن كلمة « نظام اقطاعي » تنطبق على هذه التركة التي ورثها الملك ايخ — ان — آتون مع فارق في بسيط ، وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الاقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات الذي ميز وذلك النظام الجديد من النظام الاقطاعي في هذا العهد يمكن تسميته بالانجليزية Temple Feudal System وبالفرنسية Féodalité de Temple وبالالمانية Tempelfürstendum والعربية « اقطاعيات المعابد » لأنه في هذا النظام الجديد حل العبد

وممتلكاته محل القاطعة ومشتملاتها وحل الأمير الديني محل الأمير المدني.

والملاحظ أن هذه الظاهرة الجديدة ليست قاصرة على عهد الملك ايخ — ان — آتون فحسب، بل إننا نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الاخرى.

ولما جاء ايخ — ان — آتون الى العرش أخيراً وجد الحال كما بينا، وهو حال من النظام الاقطاعي الخاص، جعل الملك الشاب لا يستسيغه بل وينهز الفرص للايقاع بهؤلاء الأمراء الكهنة الذين أصبحوا خطراً على ملكه، فشاء ان يتحرر من قيود هذا النظام الاقطاعي الذي ورثه عن أسلافه، فثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه حوالي سنة ١٣٧٧ قبل الميلاد ليتخلص من اولئك الكهنة الامراء ومن سلطانهم، بل ومن معبوداتهم، وكثيراً ما تلعب السياسة دورها تحت ستار من الدين.

دكتور باهور لبيب

أهم المراجع

Maj Sandman, Texts from the time of Akhenaten,

Én, Drio ton, Trois Documents d'époque Amarnienne.

K. Seihe, Urkunden der 18. Dyn.

A. Moret, L'Egypte Pharaonique

والجزء الثاني من مجموعة تاريخ الامة المصرية الذي نشر تحت رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول باللغة الفرنسية!

Én Drioulon et Vandir, L'Histoire de Peuples Mediteranean,

Scharff und Seidl, Rechtsgeschichte der alten Aegypten

W. Wolf, Vorläufer des Reformation Echnatons

H. Schäfer, Amarna.

A. Erman, Die Religion der Aegypter

اذا أخذت ثاوس للكتابة فاقتصر على الفيد من المعاني، واكتب على اختصار قدر الحاجة، أما اذا أطلت مخطوطاً فلخص ما أطلت فيه، واوجز في ..... عباراتك، واجعل مختصرك دائماً بين يديك اذا أردت الاستذكار. في كم حالات من عشر، لا يقرأ لك إلا المختصر الذي لا تجهد نفسك في تحريره. ان قصة الخلق في التوراة قد رويت في ٤٠٠ كلمة، والوصايا العشر في ٢٩٧ كلمة وخطاب لنكلن الجلد الذي ألقاه في جتسبرج كلماته ٢٦٦. واعلان الاستقلال الاميركي، كتب في ثلاث ساعات.